

عائدة من الهند

بقلم: نور الهرمي

القوة الهادئة



من الجميل أن تكون بلدا بحجم قارة، والأجمل أن تحتضن قارة شعبا واحدا لبلد واحد وتلك هي الهند التي استطاعت بكل هدوء وسلاسة أن ترتقي إلى مصاف الدول الصناعية الكبرى، وأن تصبح رقما مهما في ميزان العلاقات الدولية. لا يمكنك أن تكتشف حقيقة تلك القارة إلا أن اتاحت لك الفرصة لزيارتها، حيث ستقف على تفاصيل دقيقة ومهمة هي التي صنعت قفزتها الاقتصادية، والصناعية، وحتى الثقافية النوعية. ولعل بعض تلك التفاصيل تتمثل في قدسية العمل أيا كان مستواه وطبيعته، الانضباط الشديد والصرامة المتناهية داخل أماكن العمل، أو الدراسة كالمؤسسات التربوية وخاصة الجامعية سواء من طرف الطلبة أو الأطار التدريسي، مواكبة التطور التكنولوجي بكل حذافيره حتى على أبسط المستويات الشعبية، فكل متطلبات الحياة في الهند تتحقق عبر تطبيقات الانترنت كالتسوق الإلكتروني، الحجز في المطاعم، الفنادق، والمقاهي، في الجامعات والمدارس، المؤسسات وحتى وسائل النقل العامة والخاصة وغيرها. و هنا لا يمكن إلا الاشادة بانجاز نوعي للهند وهو التمكن من حل مشاكل النقل في بلد يعد سكانه أكثر من مليار نسمة، ومساحته أكثر من ثلاثة ملايين كيلومتر مربع بشبكة غاية في التنظيم والدقة لوسائل المواصلات العامة والخاصة. في الهند ستتعرف على المعنى الحقيقي للتنوع والثراء. سيذهلك ذلك البلد بثرائه المعرفي والعلمي والثقافي، بثراء تقاليده وتنوعها، بثراء الطبيعة الخلابة حتى لتخال نفسك في جنة على الأرض، بثراء المناخ، بثراء الموروث الحضاري والديني، بثراء المرجعيات الفكرية بثراء الطقوس والتقاليد، بالثراء والتنوع اللغوي الذي يتراوح بين اللغات العالمية وخاصة الانكليزية واللغات المحلية المتعددة، بثراء الأسواق وتنوع السلع والبضائع الهائل فيها، وحتى بثراء الحياة الروحية بحيث لا يمكنك أن تعود إلى بلدك إلا وابتعادك محمل بشحنة من الصفاء الروحي يقال أنها قد تلازمك مدى الحياة.

في الهند لا يمكنك إلا أن تشتم عقب العراقة والتاريخ، في كل ركن وزاوية، وفي كثير من تفاصيل الحياة، في ملابس الناس وهندامهم الشعبي المحبب، في المعابد المنتشرة في كل مكان، على جدران المنازل ومحطات المترو، وستدهش لذلك

التمازج العجيب بين العراقة والحدائث المتداخلين لدرجة التماهي. و قد تقف عاجزا عن فهم المتناقضات الحاضرة جنبا إلى جنب: كالتمسك بالمعتقدات الاجتماعية والمفاهيم الدينية مع السعي إلى الحدائث ومواكبة العصر. بين عقب الشرق النفاذ الذي يفوح في كل تفاصيل الحياة (الطعام ببهاراته الشرقية، اللباس، طبيعة العلاقات الاجتماعية) وتأثير الحضارات الخارجية المتنوع. بين التعدد الكبير للملل والطوائف والأديان والقدرة العجيبة على التعايش السلمي بينهم. واجتماعيا بين السيطرة العديدة الواضحة لعدد الرجال والمؤكدة احصائيا مع المكانة المتميزة للمرأة. لا شك أن الهند تواجه تحديات كبيرة جزء كبير منها مرتبط بتركيبها السكانية والجغرافية، وجزء آخر تفرسه التوازنات الإقليمية والدولية ولكن هذا لم يمنعها من أن تكون واحدة من أسرع اقتصاديات العالم نموا، وأن تكون سابع أكبر اقتصاد وثالث أكبر قوة شرائية في العالم.

في الهند لن تجد نفسك غريبا لسببين مهمين: أولهما بقاء، فبعض وبساطة الانسان الهندي الذي يخترن في داخله ارثا حضاريا وانسانيا كبيرا ينعكس على علاقته بالآخرين. وثانيهما ثراء المرجعيات الفكرية التي لا بد أن تجد نفسك تنتمي لاحداها.

لم يمنع البعد الجغرافي للهند عن المنطقة العربية من التقارب الحضاري على مدى التاريخ، ومن ربط علاقات تجارية واقتصادية متينة كان طريق الحرير أكبر أمثلتها، عدا عن التاثر المتبادل للثقافات والواضح في التشابه الكبير للأساطير، القصص، والأمثال الشعبية. زيارة الهند تجعلك تكتشف منبع حكمة طاغور، وبساطة غاندي وتسامحه، وتضع أمام عينيك مفهومين غاية في الأهمية هما: (بساطة القوة) و(قوة البساطة) في بلد هو أهل لما وصل إليه من المراتب العليا في العالم ما دام يتبنى شعار: «الحقيقة وحدها تنتصر».